تاريخ الطب عند العرب

- ٣ -

وقد نبغ الى جانب الرازي في الطب علي بن العباس المجوسي من الاهواز وقد كان طبيباً مجيداً متميزاً في صناعة الطب . ومن موجبات الاسف اننا لم نقف على كثير علم من ترجمته . وله الكتاب المشهور الذي يُعرف بالملكي صنفه للملك عضد الدولة الديلمي من آل بويه . وهو كتاب جليل مشتمل على أجزاء الصناعة الطبية علمها وعملها في عشرين مقالة . وقد نسق فيه سبل الأقدمين ما عدا المفردات الطبية فزاد عليها كثيراً . وفيه لابن العباس نظريات ومشاهدات خاصة في الحصاة وانقلاب الرحم وهو اول من ذكر فرقعة العظم في تشخيص الكسور وحصول الكسر من جراء التقلصات العضلية الشديدة . وقد انتقد المجوسي في مقدمة كتابه الملكي أعاظم الأطباء الاقدمين والمعاصرين له ، وأظهر نواقص كل منهم مما ينطق ببعد نظره وسعة علمه . والملكي هو الكتاب الوحيد في الطب الذي حمله الصليبيون معهم الى اوربا ونقله الى اللاتينية قسطنطين الافريقي الشهير وانتحله لنفسه تحت عنوان پانتبني ودرسه في مدرسة سالرنة فطار ذكره في جميع انحاء اوربا ولقب بالبابغة المجدد الى ان ترجم الملكي الى اللاتينية آتيان الانطاكي في القرن الثاني عشر للميلاد فانكشف اذ ذاك عن حقيقة قسطنطين الحجاب واتضح انه منتحل ظاهرة الكتب العربية كما سيأتي بيانه .

وبينا العرب في المشرق يستقطرون العقاقير و يحلون المعادن ويستخرجون الكحول و يصفون الحصبة والجدري و يعالجون الحميات بالماء البارد كان اخوانهم في المغرب في تلك الاندلس الجميلة يشرحون الاجساد ، ويخزعون الحصاة ، و يجبرون الكسور ، ويعملون الاعمال الجراحية الكبرى ، وفي رأسهم ابو القاسم الزهراوي محيي الجراحة ومجددها .

ولد ابو القاسم في الزهراء قرب قرطبة ، وقد اختلف في تاريخ ولادته و يغلب ان تكون في أوائل القرن الحادي عشر . وكان طبيباً فاضلاً خبيراً بالادوية المفردة والمركبة وجراحاً كبيراً بلغ بالجراحة مبلغاً لم يصل اليه غيره من الاطباء في ذلك التاريخ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أهملت الجراحة زمناً عند العرب على نحو ما بقيت أعصاراً مهملةً عند الغربيين. وكان العرب يحتقرونها لانها صنعة يدوية . و بالنظر لامتناعهم من تشريح الموتى وقناعتهم من هذا الفن بما يدرسونه في كتب الأقدمين ظلت الجراحة عندهم متأخرة زمناً غير قليل . ومازال حال الجراحة والتشريح من الاهمال على ذلك حتى جاء ابو القاسم الزهراوي فحطم بحديد جرأته تلك القيود ، وبدد بساطع حجته تلك الاوهام ، ونهض بالجراحة من سافل محطها الى اسمى مايليق بها من الكرامة والرقي . فحث على درس التشريح وحض على تشريح الموتى . وبذل كل ماأوتيه من قوة في سبيل ترقية الجراحة وتعليمها . وله في صناعة الطب تصانيف مشهورة أفضلها كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف وهو مؤلف من ثلاثين كتاباً . اول كتاب منها يبحث في العموميات الطبية ثم يأتي درس الامراض على اختلافها بالترتيب ويمتاز الكتاب الواحد والعشرون بفصل خطير بحث فيه ابو القاسم في تفتيت الحصاة داخل المثانة و كيفية صنع هذه العملية ذات الشأن التي لم يسبقه اليها احد . وفي الكتاب الثامن والعشرين بحث في الادوية البسيطة ويقسمها الى ثلاثة أقسام الأدوية المعدنية والأدوية النباتية والأدوية الحيوانية . وهو كتاب فريد في بابه مبتكر في تصنيفه غني بمشروحاته في الأدوية المفردة . اما الكتاب الثلاثون فهو أجل ما كتب وخيرة ما ابتدع في الجراحة الى ذلك العهد نقله جراردي كريمونا الى اللاتينية في القرن الثاني عشر في مدينة طليطلة ومنه نسخة في المكتبة الأهلية في باريز رقم ٧١٢٧ .

ويمتاز هذا الكتاب بالصور والرسوم فهو اول مؤلف شوهدت فيه رسوم الأعضاء والهيكل العظمي ورسوم جميع الآلات الجراحية المذكورة في متنه مع وصف كيفية استعمالها . وهو يقسم الى ثلاثة أقسام : فالجزء الاول يبحث في الكي وفوائده وفي الأمراض المختلفة التي ينفع فيها . ويبحث ابو القاسم في الجزء الثاني في الجراحة بالآلات القاطعة وفيه يتكلم على كيفية استئصال السليلة الأنفية (البوليبس) بواسطة آلة اخترعها لهذه الغاية على شكل صنارة ويصف كيفية استئصال العقد اللنفاوية الرقبية المزمنة ويبحث في كيفية اخراج السهام الداخلة في الجسم و يتكلم في الجروح النافذة في البطن والصدر وفي طريقة اخراج الاجسام الاجنبية من داخل المري بواسطة اسفنجة متصلة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بخارج الفم بخيط متين ، وفي قدح العين بواسطة آلة مجوفة يمتص منها . و يستدل من مشاهداته انه أجرى تدر يز البطن (Gastrovrhaphie) وخزع القصبة (Bronchotomie) وانه أول من خزع الحصاة عند المرأة (Lithotomie) وقدعثرنا على وصفه هذه العملية الخطيرة في ذيل كتاب الحصى للرازي المنوه به سابقاً . وهو اول من أصلح طرز عمليات البتر وكان من قبله يبترون القسم المعتل فقط ، اما هو فقد أوصى بالقطع في الأنسجة السالمة عن بعد من الأنسجة المر يضة كما هي الطر يقة المتبعة اليوم . وقد قال هلرو پورتال ان ابا القاسم وصف قبل (امبرواز باره) ربط الاوعية . و بحث ايضاً في هذا الجزء في الولادة فأشار بقلب الجنين في الاعتلان المستعرض وذكر طر يقة تفتيت الجنين ووصف الآلات اللازمة لجذبه ولتوسيع عنق الرحم وفيه مشاهدة مهمة في الحبل خارج الرحم . و بحث ايضاً في الالتهابات المتقيحة فأوصى بخزع الخراجات القر يبة من المفاصل في بادئ ظهورها و باستئصال جميع الاقسام المر يضة في الالتهابات العظمية وذلك خير ماتوصي به الجراحة الحديثة . و ينتهي هذا الجزء بتعداد القواعد التي يجب مراعاتها في العضد .

اما الجزء الثالث من هذا الكتاب فهو ابحث في الكسر العظمي والتجبير وخلع المفاصل ومعالجته . و ينتقد على ابي القاسم في هذا الباب ترجيحه استعمال الآلات الميكانيكية في إرجاع الخلع وتجبير العظم على الأيدي . و يتكلم في هذا الجزء عن الخلع المزمن وطرق معالجته وهو اول من اشتغل بهذا الموضوع .

هذه هي خلاصة أبحاث كتاب التصر يف ومنها تجلى للابصار منزلة ابي القاسم الرفيعة في عالم الجراحة والانقلاب العظيم الذي أحدثه (التصر يف) في انحاء العالم .

قال الاستاذ بوشوت في كتابه تاريخ الطب والمذاهب الطبية (ص ٣٥٢) ما تعر يبه : ان جراحة ابي القاسم التي ترجمها حديثاً لوسين لكران هي وايم الحق مبتكرة وهي اهل للمديح الكثير الذي وصفها به فبر يس دكابندانتي (القائل ان ابا القاسم بعد المثل الاعلى للعلم) فاننا نشاهد فيها كثيراً من الرسوم (الى ان قال) وقد حببت بهذا الطبيب الجراحة العملية الخطيرة المتدرسة من عهد بعيد . فقد استأصل سليلة الانف وعالج بحجر جهلم . واستعمل الكاو يات في أمراض لم يجسر احد قبله ان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يستعملها فيها . وكان يؤثر الحديد على غيره من المعادن فعالج بالكي بالحديد ثقلصات الوجه الاختلاجية المؤلمة وكان يكوي فيها خلف الصدغ او عند ملتقى الشفتين وعالج بالكي الجذام الدرني والقروح السرطانية والنزف الخ » . وجاء في خطاب الاستاذ فورغ الجراح الحالي الشهير الذي ألقاه في تشرين الثاني ١٩٢١ في الاحتفال الذي عقد احتفاءً بمرور سبعمائة سنة على جامعة مونبيليه ما تعريبه : في القرن العاشر والحادي والثاني عشر وضع العرب واليهود (وكان اليهود الصلة بين العرب والفرنج) في مونبيليه أسس المعارف الطبية . وكانت مدارس الطب في الاندلس حافلة زاهرة كمدارس الطب في آسيا . وفي القرن التاسع (والصحيح الحادي عشر) ظهر في قرطبة ابو القاسم الذي أحدثت كتبه الجراحية في جامعتنا هذه أعظم تأثير يدلنا عليه استشهاد الاستاذ جي دي شولياك به اكثر من مائتي مرة » وقد ترجم القسم الجراحي من التصريف جراردي كريمونا الى اللاتينية وترجم كله الى العبرانية واللغة البروفانسالية وغيرها . وانتشر في اوربا انتشاراً هائلاً وأحدث فيها انقلاباً جديداً ودرس في اول عهده في سالرنة وغيرها من مدن ايطاليا زمناً طويلاً وحمله الى فرنسا في القرن الثالث عشر فريق من الاطباء الايطاليين الذين التجأوا اليها لاحكام سياسية ومنهم روجي دي پارمه الذي نالت مؤلفاته في الجراحة شهرة عظيمة ، وهي لم تكن في الحقيقة سوى انتحال افكار ابي القاسم في الجراحة وأعماله فيها . ولا أرى أجل برهان على ذلك من تصريح الفرد فرانكلن في كتابه التنقيب عن اصول الجراحة ورقيها في فرانسا (ص ٣٢) ما تعريبه : « جدد ابو القاسم ذلك النابغة الرحب الجسور فن الجراحة عند العرب فطار ذكره في الأقطار ودخلت مؤلفاته ايطاليا فكان فيها ابو القاسم دليل الجراحين في أعمالهم وفي تصانيفهم . وما الجراحون الذين نبغوا في ايطالية بعد ابي القاسم الا نقلة ومقلدون لهذا الرجل العظيم . وقد نظر الى هؤلاء الجراحين بعين الاعجاب وعدوا مجددين للجراحة على انهم في الحقيقة لم يزيدوا على الجراحة أقل شيء جديد . بل أدخلوا فيها اختلافات كثيرة (الى ان قال) وقد أخذ من كتاب ابي القاسم روجي دي پارمه كل القواعد التي تتألف منها مصنفاته ولم يذكر مآخذها وانتحلها لنفسه فنال بذلك تلك الشهرة والمكانة العظيمة » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا هو ابو القاسم وتلك أعماله وهـذه شهادات أعاظم أساتذة الطب الحديث في اوربا بفضله وعلو مكانته ، ولا أرى ان أزيد عليهـا الا ما قاله الاستاذ فرند الانكليزي ابو القاسم هو محيي الجراحة ومجددها » .

* * *

وبينما كان بدر ابي القاسم يتلألأ في سماء الاندلس كانت تضيء في خراسان شمس ابن سينا ذلك الشيخ الرئيس فتنير باشعتها ظلمات الافكار وتمزق بانوارها غوامض العقول .

ولد الحسين ابو علي بن عبد الله بن سينا في بخارى عام ٣٧٥ للهجرة وكان آية في الذكاء ومعجزة بقوة الادراك أتقن اللغة والأدب وهو في العاشرة من عمره . ثم درس الفلسفة العقليـة والالآهيـة والفقه والرياضيات والطب وما وراء الطبيعة ، وفاق أهل زمانه في كل هذه العلوم وهو لم يتجاوز الثاني عشرة سنة من عمره . وقد قلده الامير شمس الدولة الوزارة في همذان فتقلدها ثم عزله وحبسه لاسباب ادارية ، وكان شمس الدولة مصاباً بالقولنج فاشتد عليه الألم فطلب الشيخ واعتذر اليه فاشتغل بمعالجته ، وأقام عنده مكرماً مبجلاً . وأعيدت الوزارة اليه ثانياً وبقي فيهـا الى ان توفي شمس الدولة وخلفه تاج الملك فاتهم الشيخ بمكاتبة علاء الدين امير اصفهان فسجنه اربعة اشهر ثم خلي سبيله فذهب الى اصفهان وصادف فيها في مجلس العلاء ما يستحقه من الاكرام والاعزاز . وكان ابن سينا شديد القوى كلها وكان شديد الشبق كثير الوقاع والشرب فأثر ذلك في مزاجه فاعتراه مرض القولنج في اصفهان ولما اشتد به رجع الى همذان وتوفي فيها عن عمر يناهز الثالثة والخمسين سنة ٤٢٨ للهجرة . وله مؤلفات عظيمة في جميع العلوم وأشهر ما ألفه في الطب كتابه القانون ومنه نسخة في دار الكتب العربية في دمشق . وهو أشهر من نار على علم جمع فيه زبدة ما وصل اليه علم الطب عند اليونان والكلدان والفرس والهندبين وانتقد كثيراً من أقوال سلفه وزاد عليهم أشياء كثيرة . وقد لقي القانون في الشرق وفي اوربا رواجاً لم يلقه كتاب غيره . وهو يقسم الى خمسة أجزاء فالجزء الاول يبحث في النظريات الطبية وفيه ينحو منحى جالينوس وينهج منهج ارسطاطاليس . والجزء الثاني يحتوي على ثمانمائة فصل في المفردات الطبية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومنها مواد كثيرة كان يجهلها الأقدمون . ويبحث الجزء الثالث في الامراض الموضعية من الرأس الى القدم . والرابع في الامراض التي من شأنها ان تعتري اعضاء مختلفة كالغرغرينا والخراجات مثلاً وابن سينا اول من فرق الحميرة اي الحمى القرمزية عن الحصبة والجدري . اما الجزء الخامس من القانون فهو مختص بالصيدلة ، ولا يخفى ما كانت عليه الصيدلة عند العرب في ذلك العهد من التكامل ، ففي هذا الجزء فصول ضافية عن المركبات التي أوجدها العرب كالمعوفات والأشربة والصباغ والكحولات والربوب وغيرها من التراكيب الصيدلية . وذكر في هذا الجزء المداواة بالذهب والاحجار الكريمة مما رجع اليه فن المداواة الحالي وانتقد استعمال المسهلات القوية واوصى بتعديلها او بالاستعاضة عنها بالملينات . وكان يستعمل الفصد و يوصي به في أمراض كثيرة و يداوي السو يداء بالأرجوحة . وقد أدرك المتخصصون بالامراض العقلية والعصبية فائدة المداواة بالاهتزاز في هذا العهد الأخير . اماالقسم الجراحي من القانون فليس فيه ميزة خاصة يمتاز بها . وقد لقي القانون أعظم إقبال ورواج في عالم الطب في الأقطار والأمصار فترجم الى لغات متعددة وشرح شروحاً كثيرة وكان عليه معول التدريس في اور با في المدارس الطبية مدة خمسمائة سنة . وكان في جانب جالينوس وأبقراط المرجع الاعلى في العالم الطبي . وقد طبع القانون لأول مرة بالعربية في روما سنة ١٥٩٣ ونقله في القرن الثاني عشر الى اللاتينية جراردي كريمونا وما جاء القرن الرابع عشر حتى أعيدت ترجمته اربع عشرة مرة . وما زال القانون حجة الأطباء وموضع الإعجاب الى أواخر القرن المنصرم فأضاع شيئاً من تلك العظمة وذلك لان الطب الحديث لم ينظر اليه من الوجهة التي نظر اليه منها السلف فهو في نظره قاموس في الطب والصيدلة جمع خلاصة أبحاث اليونان والكلدان والهنود والفرس والعرب في الامراض ومعالجتها والعقاقير وخصائصها فهو كتاب جليل من حيث الجمع والاستيعاب ولكنه دون الملكي والتصريف من حيث التجدد والابتكار . غير ان هذا الحكم لا يمس عظمة ابن سينا ومقدرته العلمية فهو لم يزل لدى المتأخرين كما كان عند المتقدمين ، نابغة في الذكاء ، بحراً في العلوم ، أشبه به بمعلمة (دائرة المعارف) حية تكاثفت فيها علوم الأقدمين من الفلسفة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والآنيات واللغة والادب والفقه والكيمياء والحكمة والرياضيات والفلك والموسيقى والطب مما لم يشاهد في انسان غيره . وقد صنف في كل هذه العلوم وأجاد وكتبه تربو على المئة . قال الاستاذ بوشوت في تاريخ الطب والمذاهب الطبية (ص ٣٤٩) مهما كثرت الأقوال (في ابن سينا) فهنالك صوت عالٍ تصمت أمامه انتقادات المؤرخين ألا وهو صوت عظمة ابن سينا وتأثير مؤلفاته . (الى ان قال) ومؤلفاته (الأصح مؤلفه) المدعوة بالقانون ظلت بحق القانون والدستور الطبي في آسيا واوربا مئات من السنين . وقد بلغ الاعجاب بهذا المؤلف في اوربا بحيث اقتصر معها اساتذة الطب في الجامعات على قراءة متنه وشرحه . فكان جرنر دي رولفنك يشرحه في جنوة في القرن الثامن عشر وكذلك في لوڤن من مدن البلجيك وكان قد طبع شرحه فيها بلجيوس عام ١٦٥٨ . وظل التدريس على هذه الصورة في مونبيلية زمناً طويلاً .

* * *

وبينا نشاهد الطب الحديث ينازع ابن سينا لقب المجدد ، نراه يجود بهذا اللقب على ابي مروان عبد الملك بن ابي العلاء بن زهر . أعظم طبيب عربي فاق من تقدمه من الوجهة العملية واكبر مجدد في فن الطب نزع عنه ما خلق من النظريات التي لم تؤيدها المشاهدات ولم تسندها التجارب . فكان يسير الى جنب ارسطاطاليس كلما جمع ما بينهما العلم والعمل و يفترق عنه كلما خالفت التجارب نظرياته ، ومما ساعده على النبوغ في الطب عدم اشتغاله بغيره من العلوم كمعاصريه من الاطباء . ولد عبد الملك ابن زهر في اشبيلية في الاندلس من أسرة جل أفرادها اطباء ، فقد كان جده مروان بن زهر ووالده ابو العلاء بن زهر من خيرة الاطباء المشهورين بالحذق والمعرفة . وكذلك ولده الخفيد وأحفاده فقد كان لهم منزلة رفيعة في الطب والمداواة كما ان ابنته وحفيدته كانتا عالمتين بصناعة الطب والقبالة ومداواة النساء وكانتا تدخلان الى نساء المنصور ولا يقبل للمنصور واهله ولداً الا هن . وكان ابو مروان جيد الاستقصاء في الادوية المفردة والمركبة حسن المعالجة . شاع ذكره في الاندلس واوربا واشتغل الأطباء بمصنفاته . ولم يكن في زمانه من يماثله بالجراحة فقد كان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بقصد مرضاه ببده ، ويجري جميع العمليات الجراحية ماعدا خزع الحصاة عند المرأة ، فقد كان يمتنع منها لمانع أدبي . واختص عبد المؤمن امير المؤمنين ابن زهر لنفسه وجعل اعتماده عليه في الطب وأناله من الأنعام والعطاء فوق أمنيته وكان مكيناً عنده عالي القدر وألف له الترياق السبعيني وتوفي سنة خمسمائة ونيف ودفن في اشبيلية وقد اشتغل عليه في الطب كثيرون . وكان من أجل تلاميذه في صناعة الطب والآخذين عنه ابو حسين ابن اسدون المشهور بالمصدوم وابو بكر بن الفقيه القاضي ابي الحسن قاضي اشبيلية وابو محمد الشذوني وابو عمران ابن ابي عمران (طبقات الاطباء ج ٢ : ٦٧) ولاصحة لما قاله بعضهم من ان ابن رشد كان من تلاميذه كما سنبينه فيما يأتي .

ومن أجل كتبه في الطب كتاب التيسير في المداواة والتدبير ألفه للقاضي ابي الوليد محمد بن احمد بن رشد وكان قد سأله ذلك ابن رشد ليكون متمماً لكتابه الكليات ولم يعثر على سواه من كتبه وهو كتاب عملي سهل المأخذ بصورة كناش بخلاف الملكي والقانون اللذين امتازا بصفتهما العلمية المدرسية . وقد درس فيه ابو مروان الأمراض بالتتابع من الرأس الى القدم ، ووصف الأعراض الداخلة على كل عضو من الاعضاء بمفرده عرضاً عرضاً ، ومعالجة كل منها وطرق تركيب الادوية بصورة ممتازة من الأقاويل الجزئية ذات المكانة الكبرى في فن الطب . وحمل ابن زهر حملات عنيفة على الدجالين والمنجمين الذين شوهوا وجه الطب بالخرافات والتدجيل . وكان لابن زهر وقوف تام على التشريح لا سيما الهيكل العظمي وكان يتردد الى المقابر يدرس فيها العظام . ومن المشاهدات الخاصة بابن زهر مشاهداته في الفلج والكمنة وأمراض الجهاز الهضمي وخراجة غلاف القلب وذات غلاف القلب وغيرها . ومن مبتكراته استعماله أنبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع واستعماله الحقن المغذية في المستقيم وكان من قبله يجهلون ذلك ويستعملون مغاطس الحليب للمصابين بهذه العلة وقد انتقد هذه الطريقة بصورة حقة . وقد نبذ استعمال المسهلات الشديدة وكان يستعيض عنها بالمليّنات . وكانت له مهارة تامة في تشخيص الكسور وتجبيرها وقد أجرى كثيراً من العمليات الخطيرة كخزع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

القصبة . وهو اول من لفت النظر الى إمكان ايجاد خواص في النبات غير موجودة فيه كإعطاء العنب خاصة الاسهال وذلك بسقي كرمته بماء مزيج بأدوية مسهلة مما أحدث في علم خواص النبات تجديداً محسوساً . وابلى ابو مروان ابن زهر بلاءً حسناً في تجديد فن المداواة ونشر التدبير البسيط في معالجة الأمراض بدل التدبير المشوش بالمفردات الكثيرة والتراكيب المتعددة .

وأصيب ابن زهر بخراجة في حيز المثلث الصدري ووصف هذا المرض في كتابه وهي اول مشاهدة عثر عليها الطب في ذلك . قال الاستاذ بوشوت في تاريخ الطب (ص ٣٥٥) اشتغل ابن زهر زمناً طويلاً بالجهاز العظمي حتى تمكن من معالجة الكسر والخلع معالجة دقيقة . وقد أجرى مراراً فتح الميت مما ساعده على وصف التشريح المرضي في خراجة حيز مثلث الصدر . وذات غلاف القلب واستسقاء غلاف القلب والالتصافات الليفية القلبية التي يسميها الزوائد القلبية . وعني بعسر البلع وأوصى باستعمال الحقن المغذية في المستقيم » .

وقال فرند : « يوجد لابن زهر ملاحظات في حس العظم والاسنان مما هو مختلف فيه حتى اليوم . وله مشاهدات في السل الناتج عن القرحة المعدية وفي الاختناق الحاصل من فلج المري وأخيراً في المحجاج اي المثقب المنشاري والحصى البولية وغيرها » . ونزيد على ذلك ما قاله الاستاذ جبار في جامعة ليون في بحثه عن الجرب في كتابه الطفيليات (ص ٥٠١) ما نعربه : والذي وصف الجرب هم الاطباء العرب فقد أثبتوا انه مرض سار يظهر غالباً بين الأصابع ويظهر ان ابن زهر في القرن الثاني عشر هو الذي اكتشف طفيليته وسميها صؤابة الجرب » . واذا نظرنا الى هذا الاكتشاف المهم وأضفنا اليه ما عددناه من أعمال ابي مروان ابن زهر يتجلى لنا في شخصه الطبيب المجرب المجدد في أجل مظاهره واكمل أوصافه .

***

وكان معاصراً لعبد الملك بن زهر القاضي ابو الوليد محمد بن احمد بن محمد المشهور بابن رشد فيلسوف العرب واحد تلك الاسماء العظيمة التي تفتخر بها مملكة الاندلس . كان واحداً في علم الفقه والخلاف وامتاز بالفلسفة والطب وكان في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الاولى أنبغ منه في الطب وكان بينه وبين ابي مروان ابن زهر مودة . ولما ألف كتابه الكليات الذي سيأتي ذكره وهو في الامور الكلية قصد من ابن زهر ان يؤلف كتاباً في الامور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب ولهذا يقول ابن رشد في آخر كتابه ما هذا نصه : « فمن أحب ان ينظر بعد ذلك (اي بعد درس كتابه) في الكنانيش فأوفق الكنانيش له الكتاب الملقب بالتيسير الذي ألفه في زماننا هذا ابو مروان ابن زهر وهذا الكتاب سألته انا اياه وانتسخته فكان ذلك سبيلاً الى خروجه (الى ان يقول) ولا حاجة الى من يقرأ كتابنا هذا الى ذلك » . (طبقات الاطباء ج ٢ : ٧٥) ومن هذا يتضح ان ابن رشد لم يكن تلميذاً لابن زهر كما جاء في المعلمة الفرنسية الكبيرة التي أخطأت في تراجم كثير من أطباء العرب وفي الكتب التي أخذت عنها كمعلمة البستاني وغيرها بل كان بينهما مودة . وان ابن رشد ألف في الطب قبل ان يكتب فيه ابن زهر وانه كان ينظر الى تيسير ابن زهر نظره الى كناش متمم لكتابه الكليات قد يستغنى عنه . ولد ابن رشد في قرطبة في أوائل القرن السادس للهجرة ونشأ فيها وولي القضاء في اشبيلية ثم في قرطبة وكان مكيناً عند المنصور وجيهاً في دولته ، ثم ان المنصور نقم عليه ونفاه الى اليسانة لاحقاد شخصية ثم رضي عنه فعاد الى قرطبة . وقد أخذ الطب عن ابن باجه وعن ابي جعفر بن هرون (طبقات الاطباء ج ٢ : ٧٣) وقطع فيه شوطاً بعيداً وله مؤلفات جليلة في الفلسفة والطب أشهرها في الطب الكليات وهو كتاب جامع كامل ويقسم الى سبعة أجزاء الاول منها في التشريح وكان ابن رشد يهتم به كثيراً و يرغب فيه ، ومن كلامه في ذلك من اشتغل بعلم التشريح ازداد ايماناً بالله . والثاني في الصحة والثالث في الادواء والرابع في مداواة الأمراض والخامس في الادوية والاطعمة والسادس في حفظ الصحة والسابع في التداوي . ولابن رشد بحث خطير في مراكز القوى العقلية في الدماغ وقد ترجم الحاوي فى القرن الثالث عشر ارمانجو احد أساتذة جامع مونبيلية ودرس فيها وطبع لاول مرة فى البندقية سنة ١٤٨٢ م وانتشر في مدارس الطب فى اوربا جمعاء . وتوفى ابن رشد فى مراكش سنة ٥٩٥ للهجرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يضطرني البحث الى عقد جلسات متوالية فيما اذا أردت ان استقصي ذكر كل من اشتهر في الطب عند العرب وذلك لا يتسع له المجال ، ولا تساعد عليه الاحوال ، غير نه يعزّ عليّ ان أمرّ بهذا الجمع الغفير من اولئك الأساتذة العظام الذين رفعوا لواء العلم على عامة قلل العالم دون ان أحيي أعاظم قوادهم . وليت شعري من منهم غير قائد لجيش صحي بعام . ولما كان الضيف أولى بالاكرام ، أرحب باديءً بدء بالفارابي نزيل دمشق المتوفى عام ٣٣٩ للهجرة ومنزلته في الفلسفة والطب والرياضيات والموسيقى اسمى من ان توصف ، ونصافح معه البيروني صاحب التآليف في التاريخ الطبيعي التي منها كتاب الجماهر في الجواهر والآثار الباقية عن القرون الخالية وكتاب الصيدلة في الطب الذي استقصى فيه معرفة ماهيات الادوية ومعرفة اسمائها . ونحيي بعده سنان ابن ثابت الصابي طبيب المقتدر بالله والقاهر ورئيس الدواوين والمستشفيات في بغداد وواضع المعاهد الصحية الواسعة فقد أفرد في زمانه للسجون أطباء يدخلون اليها في كل يوم يحملون الأدوية والاشربة ويطوفون السجون يعالجون فيها المرضى . وأنفذ الأطباء السيارين مصحوبين بخزائن الأدوية والأشربة يطوفون في السواد ويقيمون في كل ناحية منه بقدر ما تدعو الحاجة اليه ويعالجون من فيه من المرضى . وكان يشرف على المستشفيات ويراقب الأعمال والعمال فيها . وفي سنة ٣٠٦ فتح بيمارستان السيدة وجلس فيه ورتب الأطباء وقبل المرضى وكانت النفقة عليه ستمائة دينار في الشهر . وفي هذه السنة ايضاً تشبث لدى المقتدر بالله فأنشأ البيمارستان المقتدري وكان ينفق عليه من ماله كل شهر مائتي دينار . ودعا جميع المتطببين في بغداد الى الامتحان ولم يجز الا من ثبتت لديه مقدرته . وقد بلغ عددهم في جانبي بغداد ثمانمائة وستين طبيباً سوى من استغنى عن الفحص باشتهاره ومن كان في خدمة السلطان مما ينطق بانتظام الادارة الصحية في ذلك العهد ويدل على فرط اعتناء الامة بامر صحتها وحرمتها لهذا العلم الجليل من خصائص الحضارة الرفيعة .

وممن يجب الاحتفاء بهم صاعد بن بشر ابو منصور البغدادي الذي قلب فن المداواة القديم وخالف مسطور الأقدمين فدبر اكثر الامراض التي كانت تعالج بالأدوية الحارة بالتدبير المبرد . فهو اول من داوى السكتة الصدرية والدماغية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والاحتقانات وغيرها بالفصد والمبردات وكانوا قبله يداوونها بالوسائط والأدوية الحارة مما يسجل له بقلم الفخر .

ومنهم ابو الفرج ابن الطيب وكانت له مقدرة قوية على التصنيف ، وهو اول من صنف في الطب بصورة جداول عمومية . وامين الدولة بن التلميذ وكان رئيس الطب في بغداد وعهد اليه بامتحان الاطباء فيها . وله مؤلفات كثيرة في الطب منها اقرباذينه الذي عزل اقرباذين سابور بن سهل المنوه به سابقاً . ومنهم اسحق بن سليمان صاحب كتابي الحميات والبول نقلها قسطنطين الافريقي الى اللاتينية . ودرسا في سالرنة ثم في اوربا وكان لهما رواج عظيم . ومنهم ابن ابي أصيبعة صاحب طبقات الاطباء .

ومنهم اسحق بن عمران الذي أدخل الطب الى المغرب . وابن الجزار صاحب زاد المسافر وهو من أجل ما كتب في الطب نقله قسطنطين الافريقي الى اللاتينية وانتحله لنفسه باسم فياتيكوم ودرس في سالرنة ثم في جامعات اوربا . وابن جلجل الذي فسر اسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس . وأفصح عن مكنوناتها واوضح مستغلق مضمونها وهو صاحب كتاب ما فات ديسقوريدس من الادوية الحديثة التي كانت مجهولة عند الأقدمين ، وقد ترجم الى اللاتينية وكان له شأن في جامعات الطب في اوربا .

وابن وافد صاحب المذهب الطبي الخاص القائل بعدم التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية او ما كان قريباً منها ، فاذا دعت الضرورة الى الأدوية فلا يرى التداوي بمركبها ماوصل الى التداوي بمفردها ، فان اضطر الى المركب منها لم يكثر التركيب بل يقتصر على أقل ما يمكنه منه وذلك خير ما وصل اليه الطب الحديث في العهد الاخير . و بالنظر لوفرة أمراض العيون نجب في هذا الفرع من الطب كثير من الاخصائيين به لاسيما في مصر . منهم عيسى بن علي الكحال صاحب تذكرة الكحالين وهي ثلاث مقالات الاولى في وصف العين والثانية في أمراض العين المحسوسة والثالثة في أمراض العين غير المحسوسة كقصر البصر وغيره .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اما علم النبات فهو يسجل في أعلى صفحاته باحرف ذهبية ثلاثة أسماء عظام خلد التاريخ ذكرهم . اولهم رشيد الدين الصوري النباتي الكبير ، ولد في صور سنة ٥٧٣ ونشأ فيها وتولى رئاسة الطب في دمشق ايام الملك الناصر داوود بن الملك المعظم وكان له مجلس للطب حافل بالطلبة وله من الكتب كتاب الادوية المفردة ذكر فيه أدوية كثيرة كانت مجهولة عند سلفه وكان يتوجه مستصحباً مصوراً ومعه الأصباغ والليق على اختلافها وتنوعها الى المواضع التي فيها النبات كلبنان وغيره ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه واصوله ويصور بحسبها . وكان يصور النبات الواحد إبان نباته وطراوته ويصوره ثانياً وقت كماله وظهور بذوره ثم يصوره وقت ذويه ويبسه مما لم يسبقه احد الى ذلك . وهذا الكتاب النفيس المفرد في بابه موجود اليوم في المكتبة الشاهية الخاصة في طهران . ثم جاء من بعده ابو العباس ابن رومية الاشبيلي وقد فقدت كتبه الاصلية . ثم ظهر تلميذه ابن البيطار ضياء الدين ابن احمد المالقي النباتي . أوحد زمانه وعلامة وقته في معرفة النبات وتحقيقه واختباره ومواضع نباته ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها . ولد في القرن الثالث عشر للميلاد في اشبيلية وسافر الى بلاد الروم و يونان والمغرب في طلب علم النبات ثم توطن مصر وكان مقرباً من الملك الكامل وولاه رئاسة العشابين واصحاب البسطات ولم يزل فيها حتى توفي عام ٦٤٦ وأشهر كتبه الجامع في الادوية المفردة صنفه للملك الصالح نجم الدين ايوب وقد استقصى فيه ذكر الأدوية المفردة وأسمائها وتحريرها وقواها ومنافعها وبين الصحيح منها وما وقع الاشتباه فيه . وليس في الادوية المفردة كتاب أجل ولا أجود منه . وهو مرتب على الأحرف الهجائية يبحث في الأدوية النباتية والمعدنية والعضوية وفيه الف وثلاثمائة فصل منها ما يربو على ثلاثمائة فصل تبحث في مفردات طبية مجهولة عند الأقدمين ، ومنها الفوفل والكافور والزباد وحشيشة الملوك والقرنفل والعناب والمسك والمن والليمون البصري وجوز الهند وجوز التي والفلفل والراوند والصندل والسنا والسكر والتمرهندي الى آخر ما هنالك من الادوية المفردة التي أدخلتها العرب في الطب . وقد كان لهذا الكتاب في عواصم العالم منزلة عظمى ضؤلت أمامها مؤلفات ديقوريدس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

و بالنظر لضيق الوقت استميح العفو من ذكر بقية اولئك الاساتذة الكثيرين عدم تعطير هذا المجلس بذكر اسمائهم ·

ومن وفرة عدد اولئك العلماء الاطباء تتجلى لنا عظمة تلك المملكة الشاسعة ومدنيتها وليت شعري هل ينبت العلم الا حيث يحرس السيف و يورف العدل وتشرق الحرية؟ ويتجسم للعيون ما كان فيه الطب في ذلك العهد من الرقي وما كانت عليه دواوين الصحة من الانتظام · فما من بلد الا وكان فيه مستشفيات متعددة ومدارس طب حافلة · وكان للأطباء نظام ورئيس وللصيادلة قانون ورقيب · وكان من الأطباء فريق خاص بالجند وآخر بالمستشفيات وطائفة بالسجون · ومنهم الخاص بالخلفاء والامراء المنقطع لمداواة العامة · والكل في سعة وغناء من العيش وكان الاختصاص والاخصاء في الطب شائعين كما في هذا العهد · فكنت ترى الطبيب والجراح والفاصد والكحال والمختص بالأمراض العقلية والعصبية كل يعمل في دائرة اختصاصه وكانت المستشفيات مؤلفة من غرف بعضها ماهو خاص بالامراض الداخلية وماهو خاص بالجراحة او بالنساء او بالعيون الخ ، وكانوا يسجلون مشاهداتهم وقد وصلنا منها تجارب المارستان للرازي · قال الدكتور غستاف لبون في حضارة العرب : ان مستشفيات العرب كانت من الوجهة الصحية أفضل من مستشفيات الاوربيين اليوم بسعتها وجمال موقعها ونظافتها وكثرة مياهها وانطلاق الهواء في أطرافها · وقال ايضاً ان أطباء العرب في القرن العاشر للميلاد لم يفقدوا من مرضاهم اكثر مما يفقده اطباؤنا الحاليون ·

ولم تكتف العرب بهذه الأعمال الاولية بل جنحوا الى التكامل مدفوعين بعامل الارتقاء الطبيعي فبنوا دوراً لتجريد المجذومين · واول من فعل ذلك الوليد الأموي سنة ثمان وثمانين · وأنشأ المنصور العباسي داراً للعميان والأيتام والقواعد من النساء ، كما هو حال دور العجزة في الممالك المتمدنة اليوم ، ودوراً لمعالجة المجانين وغيرها من دور الصحة والاسعاف العام التي تبكي عليها دمشق بل جزيرة العرب باجمعها في القرن العشرين · وكانوا يدعون مستشفياتهم باسماء مؤسسيها والمحسنين اليها فيقولون المستشفى العضدي نسبة الى عضد الدولة والمستشفى النوري نسبة الى نورالدين كما ان الغربيين اليوم ينسبون معاهدهم الصحية وغرف مستشفياتهم الى مؤسسيها او النابغين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

منهم فيقولون معمل پاستور وقاعة ديولافوا وغرفة لاينك الى غير ذلك مما يخلد في نفوس الأمة ذكر أعاظم رجالها و يبعث فيها روح النهضة والاقتداء بهم . و يا حبذا لو أتيح لدمشق بل لعامة الأمصار العربية التي الفت بنيها يخلدون على ظهرها اسم الغريب والأعجمي ان تشاهد يوماً غرف مستشفياتها تنسب الى أعاظم من نبغ في الطب عند العرب فيقال غرفة الرازي بدلاً من قاعة الداخلية وغرفة ابن سينا بدلاً من الغرفة الثانية وردهة ابن زهر بدلاً من ردهة الخارجية ودار ابي القاسم بدلاً من دار العمليات الجراحية الى غير ذلك من شعائر الأمم الحية المتمدنة .

ومن هذه الصورة المصغرة لذلك الهيكل العظيم يتضح لنا كل الوضوح ما أوردناه في صدر كلامنا من ان العرب لم يكونوا واسطة نقل صماء بين الأقدمين والمتأخرين، بل كانوا أمة عاملة حية ، غريقة في الأصل والعلم ذات تاريخ مجيد ومدنية رفيعة خاصة . يتجلى الإقدام الذاتي ، والإبداع الفكري ، والإعتماد على النفس ، في جميع علومهم وأعمالهم . أحيوا العلم اليوناني القديم باجهاد النفس وعرق الجبين ، وجمعوه كما يجمع الصائغ ذرات الذهب المبعثرة في التراب تحت الأقدام فنخلوه وسبكوه ، وأضافوا اليه خبرة معارف الهنديين والكلدان والفرس ، ثم صاغوا منه عقداً حلوه بجواهر من مبتكرات عقولهم ، ولما لم يفسح الاجل في حياتهم القصيرة تركوه لاوربا الغارقة اذ ذاك في ليل أليل من الجهل والهمجية . فتحلت به صدورها خمسمائة سنة دون ان تمد اليه يداً . الى ان قيض الله لها باستور وزملاءه في القرن الاخير فصاغوا من هذا العقد اكليلاً مرصعاً تتوج به رأس الطب المكشوف في جميع أنحاء العالم .

واذ كان لا يصدق القول حتى يشهد شاهد من اهله ، وكثير أولئك الشهود ، فلنصغ الى الدكتور غستاف لبون في كتابه حضارة العرب فهو يقول : « وسنحاول الآن اثبات تأثير الحضارة العربية في الغرب وان اوربا مدينة بتمدنها اليهم .... فاذا رجعنا الى القرن التاسع والعاشر من تاريخنا حينما كانت الحضارة الاسلامية في الاندلس تتلألأ باجمل الانوار نشاهد المراكز المتعلمة الوحيدة في اوربا منحصرة في بروج يقطنها سادة متوحشون يتباهون بجهلهم القراءة والكتابة .... وكانت الهمجية في اوربا متكاثفة بحيث كان يتعذر عليها معها ان تشعر بهمجيتها . واستمر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك حتى القرن الحادي عشر وبعبارة ثانية حتى الثاني عشر اذ لاحت فيه بارقة علم ضئيلة . ثم لما شعرت بعض العقول المستنيرة بالاحتياج المبرم الى تمزيق كفن الجهل الملتفة به اتجهت نحو العرب أساتذة العلم في ذلك العصر .

(الى ان يقول) ولا يتأتى لنا حتى القرن الخامس عشر ان نذكر مؤلفاً لم يكن ناسخاً عن العرب فان روجي باكون وليونار دي بيز وارمان دي فيلنوف وريموندلول والقديس توما والبيرتو الكبير والفونس العاشر دي كاستيل وغيرهم كانوا تلاميذ العرب او مقلديهم . وقد بقيت الكتب المترجمة عن العربية ولا سيما الطبية أساس التعليم في كل جامعات اوربا مدة خمسمائة او ستمائة سنة ، ولا يمكننا ان نقول ان التأثير العربي امتد حتى ايامنا الأخيرة فان كتب ابن سينا مازالت تدرس في جامعة مونبيلية الى خاتمة العصر الاخير » .

***

اتى القرن الثالث عشر فانقض المغول على بغداد فقوضوا ذلك العمران ومحوا تلك الحضارة ، وأغرقوا في دجلة ثمار تلك العقول حتى اخضلت حزناً عليها ، فباتت تلك الرياض العلمية الزاهرة قاعاً صفصفاً خاوية على عروشها . ثم قامت الحروب الصليبية في الشام فاستحالت تلك الثورة العلمية المدنية الى تقهقر عام وحرب ضروس همجية .

واتقدت الفتن والحروب في صقلية والاندلس فأحرقت بنيرانها تلك الحضارة الزاهرة والمكاتب العامرة والسلطنة العظيمة الباهرة . فباتت تلك الممالك العظيمة الشاسعة مظلمة بعد النور ، خاوية بعد العمران ، مجدبة بعد الخصب ، ينعق في أرجائها غراب الجهل ، و ينعب في أطلالها بوم النحس والهوان .

الى ان جاءت السنة العشرون من القرن العشرين فلاح لعين التائه المتأمل في دمشق على أطلال البرامكة العظام شبح كوخ حقير ، تقصف من حوله الرياح وتتساقط من فوقه الصواعق ، أشبه به ببيت شعر صغير ، رفع على أنقاض ذلك البرج الهائل ، يدعى : المعهد الطبي العربي . فانتعش التائه واستبشر . ثم وجف . ثم تلهف .... فليت شعري هل تسمح الايام وتغمض عين الدهر حيناً من الزمن فتسكن تلك العواصف وتهدأ تلك الرياح فينمو ذاك البناء ويصبح جامعة عربية كبرى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يحيي ذكرى اولئك الرجال العظام فتنعش في السماء أرواحهم ، وتنبعث من التراب أجسامهم ، عمل عظيم يحققه السعي والدؤوب ، والله المستعان .

عضو المجمع العلمي

الدكتور اسعد الحكيم